مقابلة أدبية مع : د. عبد الله عبد الدائم

الأدب والقومية وحضارة العصر

أجرى الحديث :
ماجد السامرائي

« الوضوح الموقفي » هو المطلوب اليوم . ان تيارات ثقافية كثيرة تتصارع على ساحة الثقافة العربية لتطبعها بطابع الفوضى مرة . والتجريب ثانية ، والشكلية ثالثة .. واحيانا اخرى باللاموقفية .. في حين يبقى « الموقف التاريخي » لهذه الثقافة متجذرا ومتجوهرا في أشكال وصيغ فكرية أخرى بفعل ما فيه من سمات ايديولوجية واضحة تؤكد خصوصية الموقف القومي التقدمي في الثقافة العربية المعاصرة ..

وحين نقول بمثل هذا الموقف ، ونؤكده ، فالهدف من ذلك هو اعطاء ثقافتنا هذه بعدها الواقعي المتميز ، ومعناها التاريخي من حيث فاعلية العطاء . فهي ثقافة مبنية على أساس له سماته الثورية ، وله خصوصيته القومية المنبثقة عن فكر متطور ، غير مستسلم للواقع ، رافض للسكون .. فكر متحرك مع الحياة ، محرك لها .. وهو فكر علمي أيضا ..

واذا كنا في هذا اللقاء مع المفكر القومي الدكتور عبد الله عبد الدائم ننطلق من قضايا محددة ، وواضحة ، تبدأ بالادب القومي وتنتهي الى تفرعات اخرى ، فذلك بهدف الوصول الى تحديد دقيق لمنظور عصرنا الى مثل هذه القضايا ، ضمن تحديد « مفاهيم جديدة » لقضايا مثقفينا اليوم ، على هذا النحو أو ذاك .

وحين نطرح مثل هذه الموضوعات على الدكتور عبد الله عبد الدائم ، فلانه من مفكرينا القوميين الذين بلوروا الكثير من الافكار ، التي طرحها عصرنا ، بلورة جديدة ، تحددت فيها الكثير من السمات الموقفية ، حتى أصبحت تشكل عنده معاناة فكرية وثقافية ، مداها : ماضي الامة من جهة ، وحاضرها المعاصر الذي ترفده رؤية مستقبلية تسعى الى بناء حضارة جديدة . وعبر هذا « المفهوم الحضاري » الجديد ينظر الدكتور عبد الدائم الى قضية التراث والمعاصرة ، كما ينظر الى التربية الحديثة ، وقضايا نقل التكنولوجيا ..

* أود أن نبدأ حديثنا هذا من العلاقة التي ترونها بين الادب والقومية ، من حيث الجوهر الاصل في كل منهما .. لنتبين من خلال ذلك :

١ ـ علاقة الادب ـ كمعطى معبر عن روح أمة وعن شخصيتها التاريخية والحضارية ـ بالقومية ـ كجوهر للشخصية التاريخية للامة .

٢ ـ العلاقة الجدلية ما بين الادب والقومية .

ـ أعتقد أن منطلق الحديث عن العلاقة بين الادب والقومية يصدر عن اطار أشمل وأعم ، وهو أننا ، في شتى جوانب حياتنا ، نود أن نعبيء الجهد كاملا من أجل بناء مستقبلنا القومي ، وحياتنا القومية . وهذا الجهد ينصرف الى الميادين العديدة : الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية : ولا شك أن الادب يحتل مكانة خاصة في هذا الجهد الموصول والمتراكم والمتكامل الذي نود ان نبذله في سبيل بناء حياتنا القومية . فالادب لعب دوما ، في التاريخ ، دورا أساسيا في بناء الحياة القومية للشعوب ، وفي تفجير منطلقات حياتها الجديدة .. والامثلة عديدة ، لا حاجة الى ذكرها ، تشير كلها الى الدور الكبير الذي يلعبه الادب كمهاد للمناخ القومي ، وللنهضة القومية .

ولا شك أننا حين نشير الى الادب ودوره في بناء الحياة القومية ، فنحن لا نشير الى أي نوع من الادب ،

بل نعني أدبا من نوع معين يرتبط ـ ارتباطا وثيقا بالحياة القومية وأهدافها .

طبعا من حيث الاصل والجوهر ، نحن نعتقد أن الادب والفن والفلسفة هي من الامور التي تعبر أعمق تعبير عن ثقافة أية أمة .. أي عن أصالتها ، وحضارتها ، وطبيعتها الاصيلة . غير أن هذا التعبير من قبل الادب أو الفن أو الفلسفة عن أصالة الامة وعن ثقافتها الذاتية وعن هويتها القومية ، لا يأتي دوما عفو الخاطر ، ولا بد ، بالتالي ، من شيء من الجهد نبذله من أجل أن يأخذ الادب طريقه فعلا كتعبير عن ثقافة الامة ، وتعبير عن هويتها ، وتعبير عن مستقبلها .

أنا أعتقد أن الادب القومي الذي يمكن أن يعبر فعلا عن أهداف الامة العربية في المرحلة التي نمر بها ، ينبغي أن تتوافر فيه عناصر ثلاثة أساسية :

ـ العنصر الاول ، هو : الاتصال بالتراث .. والتراث العربي ، وامتصاص هذا التراث ، والتشبع بروح التراث العربي والثقافة العربية ، لا سيما واننا في البلاد العربية نملك تراثا ثقافيا نستطيع فعلا أن نفخر به . ولم ييسر لكثير من الامم الاخرى، عندما نشهد اليوم في افريقيا ، مثلا ، محاولات للحديث عن « الثقافة الافريقية » و « بعث الثقافة الافريقية » ، نلاحظ ، في الواقع ، انهم ينحتون من صخر ، بمعنى انهم يريدون ان يجدوا ، بأي شكل من الاشكال ، في ماضيهم الفكري او الادبي او الفني ، ما يعبر عن معالم ثقافتهم الخاصة .. ولكن هذا الجهد الذي يقومون به جهد شاق ، لان معالم هذه الثقافة الاصيلة في ماضي الشعوب الافريقية معالم ضعيفة وضئيلة ولا يعتد بها ..

أما نحن فعلى العكس .. نحن نغرف من بحر .. لدينا تراث ثقافي وحضاري عريق وعميق وأصيل ، قدم خدمات كبرى للعالم .. بل نستطيع أن نقول بأنه فجر كثيرا من جوانب الحضارة العلمية والثقافية والمادية في العالم .

هذا ما أعنيه بالعنصر الاول : الاتصال بالتراث ، ومعاناة التراث والتشبع بروح التراث . أي كاتب أصيل في أي ميدان من ميادين الادب ، لا بد أولا أن تقوم صلة حية بينه وبين هذا التراث . فالتراث العربي تراث حي ، متصل بحياتنا اليومية ، وما يزال يحيا بيننا .

ـ العنصر الثاني الذي أرى أن من الواجب توافره من أجل تكوين أدب قومي أصيل وصحيح ، هو : الاتصال بالواقع العربي .. الاتصال بالحياة العربية .. ومعاناة الحياة العربية القائمة .. معاناة حياة الشعب العربي .. معاناة المشكلات التي تمر بها الامة العربية .. معاناة مختلف التجارب الحية التي يعاني منها كل فرد من أفراد المجتمع العربي . هذه المعاناة .. هذا الاتصال بواقع الشعب .. هذا الاتصال بواقع الجماهير الشعبية .. هذا الاتصال بانفعالاتها ، بمشكلاتها ، بآلامها ، بتطلعاتها .. أعتقد أنه هو أحد المصادر الحية الاساسية التي تولد الادب المبدع ، والادب الخلاق ، والادب القومي ، لا يمكن للاديب المبدع ، وللاديب المعبر عن حاجات أمته أن يكون منعزلا في أبراجه العاجية ـ كما يقال ـ أو أن يحيا مشكلات مجلوبة ، مصنوعة ، غريبة عن مشكلات الوطن العربي والبيئة العربية . نجد ، أحيانا بعض الكتاب يعالجون مشكلات غريبة عن مجتمعنا ، منقولة من العالم الغربي .. منقولة من طبيعة الوجود الاجنبي والحياة الغربية الاجنبية . مثل هذا الادب لا يمكن أن يعبر تعبيرا صادقا عن حاجات الامة العربية ، ولا يمكن أن يكون أدبا أصيلا . الادب الاصيل طبعا فيه جانب انساني ، وفيه جانب التجربة الانسانية .. هذا أمر بدهي لا جدل فيه .. ولكن فيه ، أولا وقبل كل شيء ، هذه المعاناة الحية لانفعالات الجماهير ، ولحياة الجماهير ، ولمشكلات الامة العربية ، وللصراع الذي تواجهه في طريقها لبناء حياتها ، ولبناء مستقبلها .. لبناء وحدتها ، ولبناء حضارتها . هذه المعاناة هي من العناصر التي تبدو لي أساسية في أي عمل أدبي مبدع وخلاق .

ـ هنالك عنصر ثالث لا بد في نظري أيضا أن ينضاف الى هذين العنصرين لتكتمل معالم الادب القومي السليم والصحيح .. وأعني به الارهاص بالمستقبل .. والتطلع الى المستقبل ، ورؤية المستقبل . نحن ، طبعا ، نتصل بماضينا ، ونتصل بحاضرنا ، ونحيا مشكلات حاضرنا من أجل أن نبني مستقبلنا . ومن هنا كانت الرؤية المستقبلية جزءا أساسيا ، ومقوما أساسيا من مقومات الادب القومي الصحيح .. بمعنى أن الادب القومي ينبغي أن يرينا صورة المستقبل العربي المنشود .. صورة الحضارة العربية الموعودة .. ينبغي أن يستبق الزمن ليرينا الحياة العربية بعد تفتحها ، وبعد تفجرها ، وبعد اشراقتها .. فيرينا هذه الحياة في غناها ، وفي حرارتها وفي صورتها الجديدة . أعتقد أن هذا الجانب ما نزال مقصرين فيه الى حد كبير . ما هي هذه الصورة المستقبلية للبلاد العربية عندما تقوى هذه البلاد على التغلب على مشكلاتها .. عندما تقوى على التغلب على التجزئة التي تعاني منها .. عندما تصبح أمة موحدة .. عندما تنضم طاقاتها المختلفة .. عندما تتفتح جماهيرها الشعبية وتتفاعل هنا وهناك في أرجاء الوطن العربي ؟ هذه الصورة الجديدة التي هي صورة مشرقة ، بدون شك ، ومليئة بكل معاني الحياة ، وبكل وثبة الحياة وامكاناتها ، صورة ينبغي أن يجهد الكتّاب في رسمها بريشتهم الفكرية والثقافية ، بألوانها المختلفة ، وصورها المختلفة .

* منذ أن بدأ مثل هذا الطرح .. استطاع الفكر القومي العربي أن يميز هذه المرحلة من حياة الامة وأن يصفها بأنها « مرحلة ثورية عميقة وشاملة » . أريد أن أسأل : أية صورة

تتكون في ذهنكم بين الابداع وروح الثورة في الواقع العربي ؟

ـ ان كنت قد أدركت تماما الغرض من هذا السؤال أستطيع أن أقول أن الابداع هو ، في النهاية ، حصيلة اللقاح بين الخيال والواقع .. بين الصورة الواقعية والصورة المستقبلية . نحن ، في جهدنا العربي لبناء حياتنا العربية نحاول في الواقع ، أن نزاوج بين رؤيتنا للواقع ولمشكلات الواقع ولصعوبات الواقع وبين تصورنا وخيالنا الذي يمتد الى المستقبل ، عندما تكتمل شروط بنائه ، وعندما تكتمل صورة الحياة العربية الجديدة فيه. هذا اللقاح .. هذا التزاوج بين النظرة الواقعية والرؤية المستقبلية هو الذي يؤدي ، في النهاية ، الى الابداع ، والى التجديد ، والى التحرك ، والى التغيير في حياتنا . دفع الصورة الواقعية نحو « الصورة المثالية » ـ اذا شئت ـ ، دفع الواقع بمشكلاته وصعوباته وعقباته ، شيئا بعد شيء ، نحو تصور واضح للمستقبل .. نحو تصور جديد للمستقبل .. هذه العملية هي صلب الخلق والابداع الذي نقوم به في شتى مناحي حياتنا ، وهي بدورها ، صلب الابداع في العملية الادبية .. أن لا نقبع ضمن حدود الواقع المتخلف أحيانا ، الذي يشكو من الامراض .. الذي يشكو من الفساد . أن لا تكون نظرتنا نظرة المضخم لمفاسد الواقع .. (طبعا لا بد من نقد لمفاسد الواقع وصعوباته ومشكلاته).. ولكن ينبغي دوما أن نطل من خلال هذه المفاسد والمشكلات على المستقبل .. وأن نبين أن هذه المشكلات ، وهذه المفاسد تتضاءل حكما، وتتضاءل بشكل سريع ، أسرع مما نتصور عندما ننظر الى المستقبل ، وعندما نطل على المستقبل ، وعندما ندرك امكانات المستقبل .

* انطلاقا من هذه النظرة، أريد أن أعرف: على أي نحو تربطون بين الادب ـ كابداع ـ وبين معطيات الفكر وحركة الواقع ؟

ـ هذا هو ، في الواقع ، ما أشرت اليه .. ان الادب يستمد أحد عناصره الاساسية من صورة الواقع ، ومن مشكلات الواقع ، ومن آلام الواقع . هذه المعاناة التي أشرت اليها لحياة الشعب العربي .. لحياة الجماهير العربية نتيجة لهذه المرحلة التي ما تزال متخلفة ، التي يعيش فيها الوطن العربي ، من حيث التجزئة ، ومن حيث التقدم ، ومن حيث بناء الصورة السليمة للحضارة العربية .. هذا الواقع ، لا شك ، انه عنصر أساس من عناصر الادب ، ومن عناصر الفكر ..

لكن ، كما قلت ، المهم أن نحاول أن نبين كيف تتغير هذه الصورة الواقعية ، وكيف يتغير هذا الواقع المريض ، وكيف يتغير هذا الواقع الفاسد عندما نطل على مستقبل تتحقق فيه الاهداف التي ننشدها ، والاهداف التي نعمل لها . المهم أن نبين أن الاهداف التي رسمناها لحياتنا هي القادرة ، في النهاية ، على أن تجعلنا نتجاوز هذه المفاسد ، وهذه الامراض ، وهذه المشكلات التي نعاني منها .. وأن الحل الوحيد لمشكلاتنا هو في هذه المعالجة الشاملة والكاملة للواقع العربي ، بحيث نضعه في اطار الاهداف المتكاملة التي رسمناها لمستقبلنا العربي .. أهداف الوحدة .. أهداف الحرية .. أهداف الاشتراكية . هذه الاهداف عندما تتكامل ، وعندما تتفاعل ، هي وحدها القادرة على أن ترسم الصورة الجديدة التي تجعلنا نتجاوز الواقع المتخلف ، والواقع الفاسد ، والتي تجعل ، بالتالي ، هذه المشكلات التي نواجهها ، وهذه الالام التي نصفها في الادب أو سواه ، تجعلها ، بالتالي ، مرحلة سيتم تجاوزها بيسر وسهولة عندما ننطلق نحو الهواء الجديد ، ونحو المناخ الجديد ، ونحو الرؤية الجديدة لمستقبلنا ..

* وهذا التوجه ينبغي أن يكون توجها ثوريا .. ضد كل نزعة اصلاحية .. وضد التفكير المجرد في النظر الى الواقع وفي تناول مشكلات هذا الواقع ... يتضمن التأكيد على الروح العربية ، والثقافية العربية كعناصر مهمة في بناء الشخصية القومية .

ـ فعلا .. قد لا أكون ، في الواقع ، قد عبرت تعبيرا كافيا عن هذه الفكرة ـ وأنت أشرت الان الى نقطة مهمة ، وهي : أن المفاسد والمشكلات التي يواجهها واقعنا العربي قد تبدو للنظرة الاولى ، وللنظرة المبسطة ، وللنظرة الاصلاحية ، وللنظرة غير الثورية .. قد تبدو مشكلات عميقة وضخمة وصعبة ، وقد يبدو علاجها أمرا متعذرا ..

غير أننا عندما نملك النظرة الثورية .. النظرة التي لا تقبل بالتغيير الجزئي .. النظرة التي سميتها «نظرة متكاملة » تحاول أن تعالج وجودنا كنظام متكامل في جوانبه المختلفة، وتحاول أن تحدث التغيير في كل مقومات حياتنا بعمل فعال وناجح وثوري ... عندما نعالج الامور من هذا المنطلق ستتضاءل هذه المشكلات التي تبدو كبيرة ومخيفة ، ونرى أن من الممكن تجاوزها من خلال هذه النظرة الثورية .

هذا هو ، في الواقع ، ما أشرت اليه عندما أكدت بأن الادب ينبغي أن لا يكتفي بتحليل الواقع ، وتحليل مشكلاته ، ووصف مشكلاته ، أو وصف الصور الاليمة التي نجدها في الواقع .. بل ينبغي أن يضيف الى ذلك صورة المستقبل عندما تتحقق الاهداف ، وعندما تستطيع هذه الاهداف ، بالتالي ، أن تتجاوز هذا الواقع الاليم ، وهذا الواقع الصعب .

* بما أنكم توجهون الكثير من اهتماماتكم الفكرية والعلمية نحو التربية العربية ـ فانتم ترون أن هذه التربية ينبغي أن تأخذ تيارات جماهيرية ـ . هل ترون أن ذلك ينبغي أن يكون على صعيد الادب ؟

وأسأل أيضا : ما العلاقة التي تقوم عندكم بين التربية في مفهومها العلمي ـ الاجتماعي ـ الجماهيري وبين الادب ، كابداع وكتعبير عن جوهر الشخصية القومية للامة ؟

كما ذكرت ، أنا أفهم التغيير ، والتغيير الثوري كعملية متكاملة وشاملة ينبغي أن تتفاعل فيها العناصر المختلفة ، وينبغي أن ننظر اليها على أنها نظام كامل متكامل له مقوماته المتآخذة والمترابطة . وبالتالي : ينبغي أن يقوم الجهد من أجل التغيير في اطار هذه النظرة الشاملة المتكاملة ، وينبغي أن يتناول شتى جوانب حياتنا ..

ولا شك أن التربية جانب أساس من جوانب حياتنا، وينبغي أن تكون جزءا لا يتجزأ من هذه النظرة الشاملة ، ومن هذا التغيير الشامل للواقع القائم . بتعبير آخر : التربية في وطننا العربي ينبغي أن تكون ، أولا ، مرتبطة بأهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية .. وبذلك ترتبط بهدف أساس من أهداف النضال القومي ، التنمية الاقتصادية والاجتماعية .. وتغير الحياة الاقتصادية والاجتماعية وتطويرها .. وتحقيق الاشتراكية . بالاضافة الى ذلك ، فان هذه التربية ينبغي أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالثقافة القومية وبالتراث القومي ، ومن هنا تنعقد الصلة بين التربية وبين الادب القومي ، من جهة ثانية .

فالتربية التي نرجوها ، ينبغي أن تكون متكاملة مع جملة الاهداف التي نعمل لها ، ومن بين هذه الاهداف: الاهداف الثقافية .. الاهداف المتصلة بخلق ثقافة أصيلة، بخلق مجتمع عربي مرتكن الى ذاته .. مرتكن الى بنيته .. مرتكن الى شخصيته . تكوين الشخصية القومية .. تكوين الهوية القومية .. تكوين المواطن العربي المرتبط فعلا بجذوره .. بتراثه .. المرتبط بحياة أمته، وبأهدافها ... هذه الشعارات ينبغي أن تكون على رأس أهدافنا التربوية التي نعمل لها .

* هل أفهم من هذا انكم تعتبرون الادب عنصرا من عناصر التربية القومية للانسان العربي؟

ـ لا شك أن التربية تضم جوانب عديدة : تضم الاعداد الفكري ، وتضم الاعداد الانفعالي ، وتضم الاعداد الحركي المتصل بالمهارات التي يكتسبها الانسان. فالتربية، في الواقع ، تتصل بكل ما يتعلق بتكوين الانسان كانسان .. ولا شك أن جزءا أساسيا من تكوين الانسان ومن تكوين شخصيته هو « تكوينه الثقافي » ، وتكوينه ـ اذا شئت ـ الادبي ، وتكوينه الانفعالي . وعندما أقول « تكوينه الانفعالي » اقصد هنا ، بالدرجة الاولى ، الفن ، والادب ، وكل الجوانب الجمالية في الحياة ... هذا التكوين هو جزء أساسي من العملية التربوية . فالعملية التربوية عملية شاملة .. وبطبيعة الحال ، تضم بين جنباتها التكوين الادبي .. التكوين الفني .. التكوين الجمالي بشكل عام ، وينبغي ، بالتالي ، أن يكون هنالك ترابط بين نظرتنا الى الادب .. بين مضمون الادب ، كما نريده ، وبين مضمون التربية التي نقدمها ، ولا سيما التربية الجمالية .. التربية الادبية .. الثقافة الادبية، والمناهج الادبية .. الخ . هذه الامور ينبغي أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بنظرتنا السليمة الى الادب ، من جهة ، والى التربية ودورها ، من جهة ثانية .

* هناك بالاضافة الى هذه العناصر التي ذكرتم ، « الثورة العلمية التكنولوجية » التي بدأت تدخل حياتنا التربوية ، وحياتنا العلمية . حبذا لو نتوقف هنا ، قليلا ، لنتبين العلاقة بين هذا « الجديد المكتسب » وبين « الاصيل » في شخصيتنا الثقافية ، وفي تكويننا الذهني ؟

ـ نحن في عصر الثورة العلمية التكنولوجية .. عصر « الثورة الصناعية الثانية » ـ كما يقال أحيانا . وهي ثورة تختلف ـ كما يبين كثير من المفكرين ـ عن « الثورة الصناعية الاولى » ، لا في الدرجة والرتبة فحسب .. ولكن في الطبيعة والنوعية ، بشكل خاص . بمعنى : انها مباينة ، بطبيعتها وجوهرها ، للثورة الصناعية الاولى . فنحن في عصر الثورة العلمية ـ التكنولوجية .. في عصر الثورة الصناعية الثانية .. ولا نستطيع ، بالتالي ، أن ندخل العصر ، وأن يكون لنا دور في العصر ما لم نتصل بهذه الثورة العلمية التكنولوجية في شتى الميادين ..

الثورة العلمية التكنولوجية تنطلق الان في شتى ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية .. ولكنها ما تزال ، الى حد بعيد ، بعيدة عن ميدان أساسي ومهم هو : ميدان التربية . ومن هنا كانت عنايتنا دوما بأن تدخل الثورة التكنولوجية أيضا ميدان التربية ، وأن لا نظل ـ في ميدان التربية ـ نعمل بوسائل حرفية وتقليدية. لا بد أن ندخل التكنولوجيا الى التربية .. وعندما أقول بأن التكنولوجيا ينبغي أن تدخل التربية فانني لا أعني بالتكنولوجيا مجرد الادوات والاجهزة والوسائل (السمعية البصرية ، الوسائل المعنية في التعليم . وسائل الايضاح ... الخ) . هذه جزء من «تكنولوجيا التربية » .. ولكن تكنولوجيا التربية تعني شيئا أعم ، وهو : كل طريقة ، وكل تقنية ، سواء كانت تعتمد على الآلة تعني شيئا أعم، وهو : كل طريقة ، وكل تقنية ، سواء كانت تعتمد على الآلة أم لا تعتمد عليها ، التي يمكن أن تؤدي الى تغيير

جذري في النظام التربوي ، سواء اتصل هـذا التغيير باطار التربية وبنيتها ، أم اتصل بمناهج التربية ، أم بطرائقها وبالابنية المدرسيـة ، والادارة المدرسيـة ، أم باعداد المعلمين . كل جوانب العملية التربوية يمكن أن نعيد النظر فيها اعادة جذرية ، وأن ندخل فيها تقنيات جديدة ليست بالضرورة أدوات وأجهزة ووسائل ، ولكنها أساليب علمية ، متطورة ومتقدمة من شأنها أن تزيد من فعالية العملية التربوية ، ومن شأنها أن تجعلنا نقـدم تعليما أفضل وأجود وأكثر فعالية وجدوى لعدد أكبر من الطلاب بنفس الموارد المتاحة .

هـذا النـوع مـن التكنولوجيا .. هـذا المفهوم للتكنولوجيا هو الذي نرى أن من الضروري أن يدخل في حياتنا التربوية . وعندما أقول بهـذا المفهوم الشامـل والواسع لتكنولوجيا التربية ـ بمعنى التغيير والتجديد للنظام التربوي ككل في شتى جوانبه وعناصره ـ يستبين بشكل طبيعي أن ادخال « تكنولوجيا التربية » في تربيتنا في البلاد العربية ينبغي أيضا أن ينطلق من واقعنا ، ومن حاجاتنا .. وينبغي أن لا يكون مجرد نقل للتكنولوجيـا التي تردنا من الغرب .. وينبغي أن لا تكـون عملية .. استلاب ثقافي « لحياتنا الثقافية ، ولحياتنا التربوية .. بل ينبغي أن نطوع هـذه التكنولوجيا ونطورها ونبـدع تكنولوجيا جديدة ملائمة لطبيعة مشكلاتنـا التربويـة » ولطبيعة واقعنا التربوي ، بحيث نمتلك هذه الاساليب امتلاكا ذاتيا ، وشخصيا ، وملائما لحاجاتنا .

ومن هنا فان ادخال التكنولوجيا ـ سواء في التربية أم في سواها ، الى حياتنا ، وتطويع هذه التكنولوجيـا لمطالب حياتنا ولاغراض مجتمعنا ولطبيعة مشكلاتنـا .. أعتقد أن هذا مثال واضح وصارخ على ما ينبغي أن نقوم به في مجال الجمع بين ما يسمى بـ « الحداثة » وبيـن ما يسمى بـ «الاصالة» . نحن لا بد ان نتصل بالتكنولوجيا في شتى ميادين الحياة ، والتكنولوجيا اليوم هي روح العصر وطبيعة العصر ، ولكن هذه التكنولوجيا ينبغي أن لا تكون تكنولوجيا منقولة . لا بـد أن تعالج مشكلاتنـا نحن ، لا أن تطرح المشكلات المطروحة في البلدان الاخرى. لا بد أن نطورها ونغير منها ونعدل فيها بحيث تلائـم طبيعة حاجاتنا وطبيعة المشكلات التي نعاني منها ، وتخدم أهدافنا بالدرجة الاولى . ليس هنالك تكنولوجيا حيادية، بمعنى أنها يمكن أن تطبق في كـل زمـان ومكـان .. التكنولوجيا هي ـ الى حد ما ـ متحيزة .. بمعنى أنها تحمل معها ، في كثير من الاحيان ، المشكلات والموضوعات التي طرحت في البلدان التي وجدت فيها . ومن هنـا يجب أن لا يتم نقل التكنولوجيا نقلا آليا وحرفيا دونمـا تطوير وتعديـل وربط بالحاجـات القائمة في بـلادنا ، وبثقافتنا ، وتجنيدها من اجل خدمة اهدافنا ..

عندما نلـح على أهميـة التكنولوجيـا والاتصـال بالتكنولوجيا . والثورة العلمية التكنولوجية . في الواقع . نحن العرب . بشكل خاص ، لا نشعر بالغربة ، لاننا في الاصل ، أول من ولد الحضارة العلمية التجريبية التي ولدت منها ، بعد ذلك ، الحضارة الصناعية ، والحضارة التكنولوجية . فالبحث العلمي .. البحث التجريبي .. البحث القائم على الملاحظة والمشاهدة ، ولد في الحضارة العربية .. ونحن نعلم أنه انتقل من الحضارة العربية ـ من بغداد .. من بيت الحكمة .. من هذه النهضة . ولعـل السمة الاساسية للحضارة العربية ـ كما يقول « فـان تيجو في كتابه « المعجزة العربية » ـ انها نقلت الفكر من الدوران حول ذاته ـ كما كان عند اليونان ـ الى الدوران حول الاشياء .. أي الى الملاحظة والمشاهدة والتجربة .

فاذن ، نحن عندما نعاود الاتصال بالحضارة العلمية والتكنولوجية ـ التي كان لنا حظ كبير في توليدها وخلقها ـ يحق لنا أن نقول : هذه بضاعتنا ردت الينا ، ولا نشعر بالغربة عن هذا الواقع . ويمكن . بالتالي . أن نربط هذه الحضارة ـ تاريخيا ـ بثقافتنا واصالتنا .. فضلا عـن أن نربطها بعد ذلك ـ من خلال ما نصنعه فيها من أهداف وغايات.. ومن خلال تطويرها وتطويعها ـ بواقعنا الحالي، وبأصالتنا الحالية ، وبثقافتنا الحالية .

* يبدو أن هذا الموقف منك من الثورة العلمية التكنولوجية يلتقي مع الموقف الذي طرح في بداية العصر الحديث من قبل مفكري مـا سمي بـ « عصر النهضة » فيما يتصل بالعلاقة بيننا وبين معطيات حضارات الامم الاخرى .. التي أريد منها أن تكون علاقة تفاعل مبـدع ، لا علاقة تقليد واستلاب ..

ـ فعلا .. ان المنطلق الاساس في كل هذا هو : أن أية حضارة أصيلة ، أية حضارة مبدعة خلاقة هي ، في الواقع ، وليدة التفاعل بين عنصرين :

ـ الاول هو: الشعور بالهوية ، والشعور بالشخصية القومية ، ووجود ثقافة قومية أصيلة لدى الشعب .

ـ والثاني هو : الانفتاح على الثقافات الاخـرى ، وعلى التجارب العالمية .

هذا التمازج بين الثقافـة الاصيلـة والحضـارة الاصيلة وبين الثقافات الاخرى كان وما يزال دوما مفجر الحضارات الاصيلة في التاريخ ، وفي أيامنـا هـذه . الحضارات التي كان لها دور وكان لها شأن هي حضارات كانت لها ، أولا ، هويتها ، وكان لها قوامها . بمعنى أنها كانت شيئا ، وأعطـت شيئا ، وكان لها تراث .. ولكنها استطاعت بفضل هذا الاهتمام الذاتي ، وبفضل هـذه التنميـة لشخصيتها القوميـة ولتراثهـا القـومي ..

استطاعت أن تكون محطة للتفاعل مع الثقافات الاخرى ، واستطاعت أن تكون منفتحة على الحضارات وعلى الثقافات الاخرى .

يصدق هذا الشكل بشكل واضح على الحضارة اليونانية .. كما يصدق على الحضارة العربية . فنحن نعلم أن الحضارة العربية بلغت أوجها في ذلك العصر الذي يعرف أحيانا باسم « عصر تمازج الثقافات » . الحضارة العربية من خلال منطلقاتها ، ومن خلال قيمها ، ومن خلال ثقافتها الاصيلة اتصلت بالحضارة العالمية ، بالحضارة اليونانية ، بشكل خاص .. وترجمت ونقلت .. ومن خلال هذا الاتصال بالحضارة العالمية ـ سواء كانت يونانية ، أم هندية ، أم فارسية ، أم سواها ـ استطاعت أن تولد حضارة أصيلة . ومن هنا سقط ذلك « الجدل الشكلي » الذي يثار أحيانا حول طبيعة الحضارة العربية ، وهل هي حضارة عربية أم حضارة تنتسب الى شعوب أخرى .. لان قيمة أية حضارة في أنها تنطلق من ذاتها ، من أجل اغناء هذه الذات بحصاد الثقافات الاخرى ، وبحصاد الحضارات التي انتجتها الامم الاخرى. فالحضارة العربية ، في هذا ، حضارة عربية دخلت فيها ثقافات أخرى ، ومازجتها ثقافات أخرى .. وهذا الامتزاج مع الثقافات الاخرى زاد في أصالتها وفي غناها، وزاد في تفتح طابعها الذاتي ، وطابعها الشخصي .

* وأحسب أننا هنا نصل الى تحديد الجوهر الاساس للنظرة القومية للثقافة ، والحضارة ، ولطبيعة البناء المستقبلي ..

ـ أنا أعتقد أن المنطلقات الاساسية التي انطلقنا منها منذ سنوات ـ منذ الاربعينات في الواقع ـ من أجل بناء حياتنا القومية الجديدة ، وحضارتنا العربية ، المنطلقات التي تؤكد على الهوية القومية وعلى الشخصية القومية ، لا على أنها شيء منعزل ، ولا على أنها شيء « معادل » الثقافات الاخرى والحضارات الاخرى والقوميات الاخرى، ولكن على أنها شيء متفاعل معها ، مغتن بها ، ومغن لها ـ هذا المفهوم الذي ولد مع الحركة القومية العربية منذ بدايتها ، يأتي الزمن فيؤكده يوما بعد يوم في شتى أرجاء العالم ..

اذا استعرضنا اليوم القيادات الفكرية في العالم ، نجد تأكيدا متزايدا ، يوما بعد يوم ، على أننا ، في العالم، أمام ثقافات ، لا أمام ثقافة واحدة ، ولا يجوز أن ننظر الى الامور على أن هنالك « ثقافة وحيدة » أو « نموذجا وحيدا للثقافة » هو النموذج الذي يقدمه الغرب ، وأن سائر النماذج الثقافية ينبغي أن تسير نحوه ، عاجلا أو آجلا . وان اي ابتعاد عن هذا النموذج هو نوع من التخلف ينبغي ان نتجاوزه . هذه النظرة زالت الان من عقول المفكرين والمنظرين في العالم .. لم يعد ينظر للامر على أن هناك نموذجا وحيدا نسير نحوه ، بل الامر اننا أمام ثقافات مختلفة ، أحيانا في طبيعتها ، وأحيانا في مضمونها .. ولا نستطيع أن نقيم بينها فوارق في الدرجة ، كما اننا لا نستطيع أن نقيم بين طباع الافراد فوارق في الدرجة . هنالك ثقافات ذات ألوان .. هذه الثقافات تتفتح عن طريق لقائها بالثقافات الاخرى .. ولكن ، لا يمكن أن تعطي شيئا للانسانية عامة ، وأن تفيد الثقافات الاخرى الا اذا كانت ، أولا وقبل كل شيء ، شيئا ذاتيا » .. « شيئا خاصا » له هويته ، وله قوامه ، وله أصالته . فنحن نشهد في العالم كله تأكيدا على الطابع الثقافي القومي ، وعلى أنه الشرط الاساسي لتفتح الثقافة العالمية ... حتى الحركات الشيوعية نفسها بدأت ، يوما بعد يوم ، تؤكد هذا الطابع الثقافي القومي الذي فرض نفسه على الواقع في حياتنا المعاصرة .

بغداد